

البعد البرغماتي للتواصل اللغوي لدى يورغن هابرماس

الباحثة : يحيىاوي
إشراف :أ.د. عمارة الناصر
جامعة مستغانم

الملخص:

يرتبط اسم يورغن هابرماس بالفضاء العمومي اذ يعد هذا الأخير فضاء المجتمعات الحديثة، إذ ألصقه بالنظرية النقدية للمجتمع والممارسة السياسية التي تركز في جوهرها على الديمقراطية. ولما كان الفعل التواصلى عند هابرماس يركز على اللغة التي يعتبرها أداة لتحقيق التواصل فكذلك يرى هذا الأخير أن الفهم المشترك بين الأفراد المشاركين والجماع الذاتى بينهم طريق الوصول إلى النجاح والكشف عن الحقائق. وهذا الفهم المشترك هو ما عرّف عنه على أنه الوظيفة البرغماتية للغة وبالتالي يتحقق البعد العملي، إلا أنّ اللغفة وحدها تبقى قاصرة.

الكلمات المفتاحية: البرغماتية، التواصل، الفعل التواصلى، اللغة، الفضاء العمومي.

مقدمة :

يعتبر الفضاء العمومي فضاءً التواصل الاجتماعي لدى هابرماس، يعبر فيه أفراد المجتمع عن طموحاتهم كما يسعون إلى تحقيق مصالحهم، يتواصلون عن طريق اللغة المبنية على الفهم المشترك للأفراد والجماعات المشاركين في العملية التواصلية، لقد ركز هابرماس على اللغة بشكل أكبر باعتبارها أداة التواصل الاجتماعي مهملاً عناصر أخرى في التواصل لأجل الوصول إلى تحقيق البعد البرغماتي ومن هنا نطرح الأشكال: ما هو التواصل اللغوي لدى هابرماس؟ وهل تعتبر اللغة كافية لتحقيق ذلك؟ كيف يتحقق ذلك في الفضاء العمومي في ظل البعد البرغماتي؟

إن من بين ما عرفت به البراغماتية بصفة عامة هو العقل الأدائي أو ما يعرف أيضاً بالعقل الأدائى كمنهج تعتمد عليه هذه المدرسة في دراستها "إن النموذج البراغماتي حسب يورغن هابرماس لا يمكن أن يتكون مستقلاً عن

التواصل وهو يتمأسس في الشكل الديمقراطي في حوارات عامة في جمهور مواطني الدولة¹. ترتبط النظرية التواصلية الهابرماسية بالمنهج البرغماتي الذي تعتمده كأساس لها لتحقيق غايتها التواصلية بين الأفراد.

إنّ التواصل كما يصوره هابرماس ينظر إلى اللغة في بعدها البرغماتي، أي اللغة وهي منغمسة في تيار الإنتاج والإبداع، لكن ما هذا الإنتاج إنه وبصرامة واختصار التفاهم أو الوفاق² entente. فالتواصل يركز على عنصر اللغة كأساس له، لكن في ظل بعدها البرغماتي الذي يحقق المنفعة من خلال التفاهم بين أفراد مجتمعه.

كما "تعتبر نظرية هابرماس في اللغة والمعرفة باسم الفعل التواصلية بمثابة منطق جديد للعلوم الاجتماعية، منطق يستند إلى منجزات فلسفة اللغة، ذلك لأنه يرى أن اللغة هي الملجأ الذي يمكن له أن يحدث القطيعة مع الأطروحات التقليدية في العلوم الاجتماعية المتعلقة بالوعي والذات والفعل والممارسة. إنّ هابرماس يحاول أن يجتاز فلسفات الوعي العقلانية والتجريبية إلى فلسفة للتفاهم عن طريق اللغة، وهذا لأن النموذجين العقلاني والتجريبي قد أفلسا في الوصول إلى نظرية واضحة وشاملة تخلو من هنات ونقائص"³. التواصل بين الذوات. إن هذا الاجتياز الذي قام به الفيلسوف هابرماس في المجال الإجتماعي يعتمد أساساً على اللغة وهذا ما يسمى بالتحول اللغوي الذي هو عنده "ليس مجرد تحول باتجاه اللغة وحسب، بل هو تحول يتعد عما يسميه «نموذج فلسفة الوعي»، وهما وجهان لعملة واحدة، فلسفة الوعي تحدد نموذجاً فلسفياً عاماً جداً يمكن اختزاله في القليل من الأفكار المميزة"⁴ إذ باللفة يتحقق التواصل. يمكن اختصارها فيما يلي:

- 1- «الذاتية الديكارتية»: الفكرة المألوفة التي مفادها أن ثمة شيئاً يعرف باسم الذات التي هي محل العقل المتصور كعالم ذهني داخلي من الأفكار والتصورات.
- 2- عادة ما تلازم الذاتية الديكارتية «الازدواجية الميتافيزيقية»: وهي فكرة أنّ هناك نوعين من المادة، التفكير والكيان الممتد. وأحياناً ما تعرف باسم «الازدواجية الديكارتية» أو «ازدواجية العقل والبدن»، لأن ديكارت كان يحسب العقل والبدن كيانين مختلفين أساساً.

3-«ميتافيزيقا الذات . الموضوع»؛ هذه هي النظرة الأكثر عمومية ومفادها لأن العالم هو مجموع الموضوعات التي تقف في مواجهة تعددية التفكير والذوات الفاعلة. وما يميز هذه الفكرة أن الذوات لا تعتبر أجزاءً من العالم الذي تعمل عليه.

4- «التأسيسية»؛ من منظور محدود، تشير التأسيسية إلى المذهب المعرفي لمدرسة فيينا أو الوضعيين «المناطق» الذي مفاده أن المعرفة راسخة في بيانات حسية أو فئة من العبارات الرصيدية البدائية. ومن منظور عام، تشير التأسيسية إلى البحث المعرفي عن اليقين الذي يميز كثيراً من الفلسفات الحديثة بداية من ديكارت وما بعده.

5- «الذرية الاجتماعية»؛ النقطة الجوهرية التي تميز الذرية الاجتماعية هي أنه رغم أن الأفراد لا يتشكلون بفعل علاقاتهم بعضهم ببعض أو بالمجتمع ككل، يتشكل المجتمع بفعل العلاقات التي تربط بين أفرادهم (...). بدلاً من ذلك. نجد أن المجتمع يوجد لخدمة المصالح والرغبات المسبقة لأفراده، والانتماء للمجتمع ذو قيمة أدائية وحسب⁵. الذات عنصر من عناصر العناصر الحاملة للغة المتجسدة في الأفكار، كما تعتبر الذات والموضوع عنصرين أساسيين في اللغة إذ تدرس الذات الموضوعات عن طريق هاته الأخيرة، كما المصلحة وتحقيق المنفعة قيمة برغماتية للأفراد داخل المجتمع.

إن مفهوم الفعل التواصلي يفترض اللغة بوصفها الوسط الذي يمكن أن يتحقق منه نوع من التفاهم ومن خلاله يستطيع المشاركون في التعامل مزاعم الصدق الذي يمكن الاتفاق عليها أو الاختلاف حولها. لا يمكن للمشاركين تحقيق التفاهم وتحري الصدق إلا بواسطة اللغة التي تعد أساساً لتحقيق التواصل. ليس كل تواصل لغة وإنما كل لغة هي تواصل.

تعتبر فريزر أن نظرية الفضاء العمومي تمتلك "قيمة مفهومة"، بحيث تساعدنا على فهم بعض المشكلات المعاصرة المتصلة مباشرة بالديمقراطية. وتعرف الفضاء العمومي على أنه "فضاء المجتمعات الحديثة حيث تمر المشاركة السياسية عبر اللغة. إنه فضاء المواطنين الذين يناضلون من أجل مصالحهما المشتركة. فضاء يأسس تفاعلاً تداولياً...وما يمكن أن يقال من مؤاخذات على نظرية هابرماس فإن مفهوم الفضاء العمومي" ضروري للنظرية

النقدية للمجتمع والممارسة السياسية للديمقراطية⁷. تبقى اللغة حسب هابرماس وفريزر هي السبيل الذي يتم من خلاله تحقيق التواصل الاجتماعي والسياسي بين الأفراد داخل المجتمع.

نظرية المعنى البرجماتية عند هابرماس:

إنّ التحول اللغوي الذي أحدثه هابرماس بابتعاده عن فلسفة الوعي الذي كان يهدف من خلاله إلى تحقيق التواصل "سنجده تحوُّلاً براغماتياً أيضاً بالقدر نفسه. يحاول هابرماس أن يحدث تحوُّلاً في النظرية الاجتماعية بمساعدة ضرب خاص من نظرية المعنى، أي النظرية البرجماتية للمعنى. في السبعينات توصل هابرماس متأثراً بكارل أوتو أبل زميله بجامعة فرانكفورت إلى رأي مفاده أن المعنى اللغوي لم يستنفذه المعنى الافتراضي، وأن للمعنى «بنية مزدوجة أدائية إفتراضية»، أو أن المعنى الافتراضي والبرجماتي كانا متلازمين⁸. ولهذا كان لا بد من التعرّيج على كل من المعنيين الإفتراضي والبراغماتي.

1. المعنى الافتراضي: بحسب النظرية القياسية الشائعة للمعنى حالياً، يتألف معنى الجملة من شروط صحتها، وفهم معنى جملة من الجمل ما هو إلا معرفة ما يجعلها صحيحة أو خاطئة. ولقد ثبت أن نظرية المعنى المشروطة بالصحة محكمة ومفيدة، فمن ناحية، هي قادرة على تفسير الحقيقة المميزة المتعلقة باللغة، ألا وهي أنه من بين عدد محدود من المفردات والعبارات ذات المغزى والقواعد النحوية التي تحكم المزج بينها يمكن تشكيل عدد لانهائي من الجمل الجديدة المفيدة الأكثر تعقيداً⁹. ومادامت الجمل الجديدة التي يمكن تشكيلها معقدة بالتي يصعب فهم نسبة معينة منها وهذا ما يمكن القول عنه "ثمة صعوبة تشوب نظرية المعنى النموذجية المشروطة بالصحة؛ ألا وهي تبدو منطقية لجزء محدود من اللغة وحسب، وهو الجزء الافتراضي أو الوصفي. ولا بأس بها في تأكيدات على غرار «الثلج أبيض»، لكنها لا تناسب تعبيرات مثل «كيف حالك؟» يبدو من العبث أن نزعماً بأنه لمعرفة معنى التعبير «كيف حالك؟» صحيحة (أو خاطئة). هناك الكثير من الأمثلة الشبيهة نرى فيها اللغة ذات معنى، مع أنه يبدو من الغريب الزعم بأن معنى الجمل أو أجزاء الجمل يعول على شروط صحتها¹⁰. منطقية الجمل صحيحة إلى حد ما ويرتبط ذلك باللغة المستعملة.

2. المعنى البراجماتي:

إذا كانت الفلسفة البراغماتية بصفة عامة مرتبطة بما تؤديه الفكرة من نتيجة فعل أو عمل فهي هنا مرتبطة بالأداء الفعل أي الفكرة مرتبطة بصحتها بما تؤديه من نتيجة وبصفة خاصة فإن نظرية هابرماس في المعنى البراغماتي "لا تركز على ما « تقولهُ» اللغة، بل على « ما تفعله»، فهي نظرية ل« استخدام» اللغة. وينطلق هابرماس من تعريف للغة عند كارل بوهلر (1879). (1963)، المتنظر اللغوي الألماني، باعتبارها «أداة ينقل بها المرء فكرة للآخر عن العالم». وينسب بوهلر ثلاث وظائف للغة تقابل منظور المتكلم والمخاطب والغائب على الترتيب؛ ألا وهي الوظيفة « المعرفية» لتمثيل الحال، ووظيفة « الإلتماس» لتوجه الطلبات إلى المتلقين، والوظيفة «التعبيرية» للإفصاح عن تجارب المتكلم"¹¹. بهذا الشكل يكون بوهلر قدم ثلاث وظائف للغة والتي لا يمكن إهمال أي طرف من الأطراف الثلاثة حتى تكتما والمهام إذ التكلم (يعبر) والمستمع (يلتصم) والغائب (الكشف والإفصاح عن تجارب المتكلم) وبهذا الشكل يتحقق التواصل. يطور هابرماس الفكرة قائلاً "إن الوظيفة البراغماتية للكلام هي الانتقال بالمتحاورين إلى نقطة فهم مشتركة،...لا يعرف المرء ماهية فهم معنى تعبير لغوي إذا لم يكن يعرف أساساً كيف يستغله للوصول إلى فهم مشترك مع الآخر حيال شيء ما"¹². يبقى الفهم المشترك بين الأفراد طريق النجاح للوصول إلى فهم معنى التعبير اللغوي وبالتالي الكشف عن الحقائق والأشياء كما ذكرنا سابقاً في وظائف اللغة بين المتحاورين.

في دائرة "الفعل الأداتي، تتأسس وجهة نظر التحكم التقني الممكن: تتناسب مع الحقيقة الفعلية الموضوعة تجربة مقيدة ضمن الشروط المتعالية. وضمن الشروط المماثلة تتشكل أيضاً لغة الأقوال التجريبية. التحليلية حول الحقيقة الفعلية. تنمي الجمل النظرية إلى لغة، سواء أكانت متكونة بإحكام أو على الأقل قابلة للتكون... ضمن شروط الفعل الأداتي تتأسس لغة نقية كمفهوم كلي لمثل هذه العلاقات الرمزية، التي يمكن أن تنتج من خلال إجراء العمليات حسب القواعد"¹³. تبقى شروط الفعل التواصلية أساساً لتشكل نوع اللغة، سواء كانت تجريبية أو تحليلية إذ تمثل هذه اللغة نوع العلاقات الرمزية التي يتعامل بها الأفراد.

إن اللغة النقية "مدينة إلى التجريد من المادة ذات النمو الطبيعي لللغات المتداولة، كما أن «الطبيعية» مدينة إلى التجريد من المادة ذات النمو الطبيعي للتجربة المرتبطة باللغة المتداولة. الاثنان: اللغة المقيدة والتجربة المقيدة تتحدان من خلال أنهما تنتجان من عمليات، سواء أكانت ذلك بالعلامة أو بأجسام متحركة. كما هو الأمر بالنسبة للفعل الأداة ذاتة"¹⁴. اللغة تتشكل بالنمو الذي يخص التطور اللغوي أو التطور التجريبي من خلال اللغة المتداولة وهذا مانجده في الفعل الأداة.

في البراغماتية "إن الجمل لا تحمل معنى الصدق والكذب لأنه هناك جمل لا يمكن وصفها بذلك، مثال قولنا: "أحضر لي الأكل" فإن هذه الجملة لا توصف بأنها صادقة أو كاذبة، لكن في المقابل هناك جمل يمكن أن توصف بأنها صحيحة أو كاذبة مثال: "إنها تمطر"، فمثل هذه الجمل التي يمكن أن توصف بالصدق أو الكذب هي القضايا وعليه فإن القضية هي الجملة التي تحتل الصدق أو الكذب، وهذا على اعتبار أن القضية تخبرنا عادة بما هو كائن ومنه فإنها تكون صادقة أو كاذبة بحسب ارتباطها بما هو كائن وهو ما يفسر قول هابرماس بأن «الحقيقة عبارة عن ملكية لا يمكن لقضية ما أن تتنازل عنها»، أما الجمل فهي على خلاف القضايا يمكن أن تحتل الصدق والكذب"¹⁵. الجمل في الفلسفة البراغماتية لا يمكن الحكم بالصدق أو الكذب لأننا لا نستطيع وصف مدى مصداقية حقيقتها، أما القضايا هي التي يمكن أن تقدم لنا ما هو كائن. "إن الحقيقة كما يراها هابرماس قول لا واقع، استدلال وليس تجربة، وبالتالي فهي لم تعد مفهوما جوهريا متعاليا يدرك في استقلاله وتعاليه الميتافيزيقي، بل إنها عمل تفاعلي تواصل يمتد في المناقشة والحجاج. لقد ميز هابرماس بين الصحة والحقيقة مبرزا أنه إذا كان كل من الصحة والحقيقة ادعاء استدلاليين، فإن هذا لا يعني أن البرهنة على صحة معيار تشبه طريقة البرهنة على حقيقة قول معين، أما ادعاء صحة معيار معروف فهو في حد ذاته موضوع تجربة أو حقيقة"¹⁶. تبقى الحقيقة إذن عمل تفاعلي تواصل يتحقق من خلال أقوال معينة عبر المناقشة.

لقد تحولت بؤرة اهتمامه من الإستمولوجيا (نظرية المعرفة) إلى اللغة، ووجد أن الفهم الصحيح لمشكلة العقلانية و«عقلنة» مظاهر الحياة

الإجتماعية لا يتأتى من التفكير في المصالح المكونة للمعرفة على إختلاف نماذجها وأنواعها، بل من إعادة بناء نظرية لفعل التواصل كما يتمثل بوجه خاص في التفاعل اللغوي ومن البحث في دور التفاهم بين «الذوات» أو الأطراف المشتركة في هذا الفعل، والمعايير والقيم التي يفترضها ويقوم عليها «الخطاب العملي» الحر بينهم. فكلما انخرط هؤلاء الأطراف في فعل التواصل وتوجهوا إلى الفهم والتفاهم، وجدوا أنفسهم يلجأون إلى نوع من الإعتبار المتبادل فيما بينهم¹⁷. تمثل اللغة لدى هابرماس اتجاه الطريق نحو الفهم الصحيح الذي يعد أساس الفعل التواصلى لدى هابرماس، كما يركز هذا الأخير على التفاهم بين الذوات بين الذوات المشاركة في هذا الفعل التواصلى التي تعتمد اللغة كأساس تواصلى لها وبالتالي يحدث الفهم الصحيح بينهم وبالتالي تحقيق غايتهم العملية.

وقد كان على هابرماس أن يبين إمكان التمييز بين التواصل المشوه والتواصل غير المشوه، وذلك بالنظر في الفهم «الفهم الذاتى» للأطراف المشتركة فيه، والكشف عن الضغوط وأشكال القمع أو القهر التي تفسد حديثهم بجانب التدليل على أن المعايير والقيم التي تستند إليها أفعال التواصل- في المجتمع وفي العلوم الإجتماعية والإنسانية- تسمح بالموافقة أو الإجماع العقلي عليها. وهكذا طور نظريته في علم التداول العام (أو البراغماطيقية العامة)¹⁸. في رأي هابرماس أنّ هناك عقبات تعترض العملية التواصلية بين الأفراد ومن بينها: الضغوطات المختلفة التي يواجهها الأفراد سواء كانت اجتماعية، سياسية، دينية أو حتى اقتصادية، مختلف أشكال القمع والقهر التي يتعرض لها الأفراد في حديثهم خلال حديثهم من أجل التواصل فقد يواجهه هؤلاء الأفراد اعتراضات شتى في المجتمع، وهما المنعى الذي اتخذه هابرماس جعله يطوّر نظريته في علم التداول. ويعنى هابرماس بنوعين من الخطاب «النظري» الذي تحلل فيه معايير الصدق (وهو من مؤيدي نظرية الإجماع على الصدق)، والخطاب «العملي» الذي يناقش فيه صواب المعايير. ولما كانت المشروعية المعيارية هي أهم المطالب في نظريته النقدية، فإن مشروعية أي معيار يمكن من حيث المبدأ تقييمها على أساس قواعد المناقشة أو التناقش في الخطاب العملي. وهذه القواعد في مجموعها (مثل الإمتناع عن استخدام القوة، وكف كل الدوافع بإستثناء دافع المصلحة أو الإهتمام بالتوصل إلى اتفاق مبني على أسس عقلية

مقبولة، والتوزيع المتكافئ للفرص على جميع الأطراف المشاركة لإتاحة اختيار أفعالهم الكلامية بحرية"¹⁹. تحرى هابرماس معيار الصدق في نظرية الخطاب النظري وناقش صواب المعايير في الخطاب العملي ومن بين مناقشه ضمن هذه المعايير:

. عدم استخدام القوة في الخطاب العملي.

. الابقاء على دافع المصلحة وهذا من بين ما اهتمت به البرغماتية.

. حق كل الأطراف المشاركة في اختيار أفعالهم الكلامية بحرية.

ودوما في مجال الفعل التواصلي لهابرماس " فقد توصل إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن تأسيس نمط تواصلي جديد، يعبر عن مجتمع جديد، دون أن يبلغ النقد أداة التواصل الأولى ذاتها وهي اللغة سواء تعلق الأمر بالتواصل الذاتي أو بالتواصل البينذاتي بما هو الدعامة القاعدية لعملية التشارك الإجتماعي"²⁰. يرى هابرماس أن اللغة لديها وظيفة تواصلية ذاتية وبين ذاتية، فعن طريق اللغة كذلك يحدث الترابط الإجتماعي يعني تأسيس مجتمع مشترك. " ولجهة بناء هذا التشارك يؤكد هابرماس على ضرورة إحداث تمييز أساس بين العمل Travail و الفعل Acte والنشاط Activité ذلك أن مفهوم العمل، ووفق دلالياته الحالية وبخاصة تلك المنحدرة الينا من التراث الماركسي، قد يشدنا الى تمييز مظاهره المادية والتقانية فقط، في حين أن مفهوم الفعل، ومن ثمة النشاط، يمتلك قدرة تخيلية، مجازية، تتجاوز الأفق المادي إلى أفق لغوي، منطوق، مقولي، يحيل مباشرة إلى مفهوم أشد تأثيرا في هيكليّة البناء الاجتماعي وهو التفاعل: التفاعل بين الصورة والمادة، التفاعل بين الواقع والعقل، التفاعل بين الذات والموضوع، التفاعل بين اللغة ومحيطها"²¹. يميّز هابرماس بين العمل والفعل والنشاط ويؤكد على هذين الأخيرين ويشيد بأهميتهما وذلك لقدرتيهما على تجاوز الأفق المادي الذي يرتكز عليه العمل إلى الأفق اللغوي الذي يساعد على التفاعل بين اللغة ومحيطها والفاعل بين الأفراد وواقعهم.

يقول هابرماس عن دور الفرد الفاعل داخل المجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق اللغة «ان الكائن الطبيعي لا يمكن أن يصبح عينيا وشخصا مفكرا عاقلا إلا إذا خرج إلى الوسط العام لمجتمع لغوي»²². إذ باللغة

يمكن تحديد شخصية الفرد داخل مجتمعه بصفته شخصا فعلا داخل المجتمع يتفاعل مع أفراد مجتمعه.

كما يقول «أنا إذا أردنا أن نفهم الفعل التواصلي علينا أن نفترض اللغة بوصفها الوسيط الذي يمكن أن يتحقق فيه نوع من التفاهم». كما أنها أيضا «الوسط الأساسي للتواصل بين الذوات»²³. فلا يمكن التفاهم بين أفراد المجتمع إلا عن طريق اللغة بوصفها الوسيط والمحور الرئيسي في ذلك وللعملية التواصلية أيضا. "فلا مجال للحديث عن اللغة بمعزل الجماعة ولا مجال للحديث عن الجماعة في ظل غياب عنصر التواصل وقوام التفاعل و عنوان المدنية والتجمعات البشرية، إنها اللغة التي لا يمكنها أن توجد كلغة إلا في الشعب مما يعني أنه لا وجود ولا ضرورة لواحد منهما في ظل غياب الآخر، فالتلازم ضروري والإتصال أكيد"²⁴. إنَّ العلاقة بين اللغة والجماعة هي علاقة تكاملية فلا وجود للغة في ظل غياب الجماعة ولا وجود للجماعة في ظل غياب اللغة فبحضور الطرفين تحدث العملية التواصلية. "لقد عمل هابرماس على تجديد وتحيين النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ضمن ما يسميه بنظرية الفعل التواصلي، وقد قام من خلال نموذج التواصل اللغوي بتأسيس معياري للنظرية النقدية التي وصلت إلى نوع من الإنسداد في أفق تغيير الوضع القائم على السيطرة، وتقديم البديل الممكن للعقلانية الأدوات التي أحكمت قبضتها الكلية على الطبيعة والإنسان، ولهذا وضع هابرماس النظرية النقدية في قلب الحياة الإجتماعية والعملية"²⁵.

تعتبر النظرية النقدية التواصلية اللغوية التي وضعها هابرماس بديل وتجديد لنظرية مدرسة فرانكفورت من أجل تغيير الوضع المندهور للإنسان إلى وضع يخدم الإنسان وفق ما تتطلبه الحياة الاجتماعية والإنسانية، هذا ما يدخل في التنشئة الاجتماعية. "قام هابرماس بإعادة تأسيس النظرية النقدية على ما يسميه العقلانية التواصلية المرتبطة جوهريا بعملية التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها الأفراد بصورة عفوية وأساسية، وذهب إلى القول بأن عملية الاندماج الاجتماعي لا تتحقق إلا بواسطة التوافق أو التفاهم المتضمن للأفعال اللغوية للمشاركين والتي تفترض الاتفاق أو الإجماع بين هؤلاء المشاركين في عملية

التواصل"26. يبقى دوما التفاهم والتوافق المبني على الأفعال اللغوية للمشاركين أساس العملية التواصلية الهادفة إلى تحصيل الاندماج الاجتماعي.

إن التواصل عند هابرماس "غدا الفاعلية الوحيدة التي في إمكانها إعادة ربط الصلة بين أطراف هذا العالم منقطع الأوصال عالم فقد كل مرجعياته ونقاط ارتكازه، وانقطعت صلته الحميمية بالإنسان وعوض التقدم والمحبة والسلام ساد الاستبداد والعنف حتى صار هذا العنف كما يقول إريك فاي E.weil موضوعا محوريا من مواضيع الفلسفة في المرحلة المعاصرة"27. التواصل أصبح الحل الوحيد و الأمل لاسترجاع الانسان انسانيته، حرته وكرامته التي سلبت منه بدلا من العنف والاستبداد والاستغلال. رغم أن هابرماس رأى أن اللغة هي أداة التواصل والتفاهم بين أفراد المجتمع إلا أن في نظر هونيث يرى أن "اختزال هابرماس الحياة الاجتماعية وأشكال التواصل المختلفة في البعد اللغوي، وهذا التمرکز حول اللغة قد يحجب عنا حقيقة التفاعلات التي في المجتمع، ويؤدي هذا - وهو الأهم- إلى عدم القدرة على إدراك التجارب الاجتماعية والأخلاقية المرتبطة بأشكال الظلم والاحتقار وعدم الاعتراف التي قد يتعرض لها الأفراد أو الجماعات"28. رغم أن اللغة لها دور التواصل إلا أنها تبقى قاصرة لأنها تحجب عنا حقيقة التجارب المختلفة المرتبطة بأشكال الظلم والعنف التي تحدث في المجتمع. " وبهذا المعنى، فإن تحقيق التفاهم عند هابرماس أمر يقوم على ربط الفعل التواصل بالغة كأداة لتنظيم الأفعال الاجتماعية وبالتالي فإن اللغة عنده ليست مجرد وسيلة لنقل الأفكار والمعلومات فقط وإنما هي رابط من الروابط الاجتماعية الأساسية الذي يؤدي إلى التداوت المشترك والتفاهم المتبادل الذي يتخلى فيه الفرد عن ذاته الطبيعية وينخرط في الإطار الاجتماعي القائم على التواصل و التداوت والمناقشة الحرة، واللغة كما قلنا هي الإطار الذي يحدث فيه هذا التواصل"29.بالإضافة إلى كل ما قيل عن اللغة لما له من دور في التواصل إلا أنها أيضاً تغمر الفرد في الأطار الاجتماعي الذي هو غاية العملية التواصلية إذ تحدث عملية التداوت والتفاهم المشترك.

" يتفق هونيث مع هابرماس في إمكانية تفسير الحياة الأخلاقية بعملية التداوت الاجتماعية وهذا لقطع الصلة مع فكرة التأسيس الذاتي(الباطني للمعايير الأخلاقية، التي كانت سائدة من قبل في الفلسفات الأخلاقية التقليدية، غير أنه

عوض أن يتم هذا التأسيس على التفاعل الاجتماعي القائم على فكرة التواصل وفق نموذج المناقشة العقلية كما رأينا ذلك مع هابرماس فإن ايتيقا الاعتراف التي قدمها هونيث كبديل لإيتيقا المناقشة، تقوم على توسيع مفهوم التفاعل التواصلية نفسه³⁰. إنَّ الجديد الذي ميّز هذه الفلسفة هو الاتفاق الذي عقد بين الاثنين (هابرماس، هونيث) الذي ينص على تفسير الحياة الأخلاقية بعملية التداوت الاجتماعية التي تحدث بناءً على التفاهم المشترك لقطع الصلة مع فكرة التأسيس الذاتي التي كانت سائدة من قبل في الفلسفات الأخلاقية وقدم هونيث ايتيقا الاعتراف كبديل للإيتيقا الهابرماسية وتوسيع لمفهوم الفعل التواصلية ذاته. ذلك أننا نجد أنّ هابرماس اختزل كل التفاعلات الاجتماعية في التواصل اللغوي الذي يعتمد على اللغة كرموز فقط وكذلك فقط أنّه لا يمكنه تفسير مشاكل الحياة من الجوانب الأخرى كالجانب السياسي. وهذا ما دفع هونيث إلى توسيع مفهوم الفعل التواصلية إلى شكل أعم.

ونتيجة "للتفاعل النقدي مع النظريات اللغوية و البراغماتية، وصل هابرماس إلى اكتشاف ادعاءات الصحة التي بحسب نظريته تقوم عليها كل الأفعال التواصلية. إنه يدافع عن فكرة وجود أربعة ادعاءات للصحة وهي: المفهومية، الحقيقة، الصحة والصدق³¹". وهذه المبادئ الأربعة تعتبر الشروط المعيارية التي اكتشفها هابرماس في التواصل ووضعها كأسس لفرضيات التي تعد كأساس في المناقشة.

1-المعقولية (Intelligibilité) " تعتبر المعقولية أحد الشروط الدائمة للتواصل وهي لا تنحصر في قول يدعي صلاحية ما أو تتضمن إمكانية للتبرير، وذلك لكونها مرتبطة بالجانب اللغوي وسلامة اللغة المستعملة في إطار التواصل ذلك أن «المعقولية التي يتم إنجازها بفعل جملة مركبة تركيباً صحيحاً تحترم قواعد اللغة المستعملة»³². إنَّ شرط التواصل يعتمد سلامة قواعد اللغة.

2-الحقيقة (Vérité): وتمثل الشرط الثاني الأساسي من شروط أخلاقيات النقاش، إن شرط الحقيقة عند هابرماس هو الذي: «يضمن وظيفياً وصف حالة واقعة موجودة وغير مستوحاة من الخيال، أو بالقدر الذي يفترض أيضاً وجود وقائعها ومن ذلك حقيقة الأقوال التقريرية»³³. إن شرط الحقيقة كأساس للنقاش يجب أن يتطابق فيه قول الفعل مع الواقع الحقيقي الموصوف

ولا يجب أن يخالف ذلك الواقع لأنه بمخالفته الوصف الصحيح للواقع فإن التواصل هنا يصبح توابعاً لامعنى له

3- المصداقية (Justesse): وهي عبارة عن إدعاء خاص: «بمصداقية التلفظ باعتبارها وظيفة لإقامة علاقة مستقيمة ما بين الأشخاص، ويتكفل هذا الادعاء بموضوع تطابق الفعل اللغوي مع مقتضيات مخطط معياري سابق معترف به من طرف المجتمع، ويمتاز بشرعية معاييرها»³⁴. يقتضي شرط المصداقية تطابق اللفظ القولي مع مقتضيات الأشخاص الذين يقيم علاقة معهم لتحقيق علاقة مستقيمة معهم وأن يكون معترف به من طرف المجتمع لا مخالف له.

4- الصدق (Sincérité): ويرتبط هذا الشرط بنوايا المتحدث التي يفترض أن تكون سليمة وحسنة منزهة عن أي أغراض، أو نوايا سيئة، فهو عبارة عن شرط يتعلق: «بصدق ما يقال، بالقدر الذي يسمح به للمتحدث عن التعبير عن نوايا محدودة وبطريقة صادقة بعيدة عن التضليل والكذب ومن دون سفسطة»³⁵. ويبقى شرط الصدق هو الآخر شرط لا يتعد فيه المتحدث عن قول الصدق كما يسمح له أيضاً بالتعبير عن نواياه الحسنة والحميدة، ويتعد عن الكذب وأن لا يتلاعب بالألفاظ كما كان يفعل السوفسطائيين من أجل تمويه وتضليل العقول عن قول الصدق ومعرفة الحقيقة.

يقول هابرماس عن البراغماتية أنها هي «المبدأ الذي يرى أن حكماً نظرياً Theoretisch يمكن التعبير عنه في جملة في صيغة المضارع، إنما هي صيغة مضطربة لفكرة ما، معناها الوحيد، إذا افترضنا إجمالاً أن لها معنى، يوجد في توجهها في أن يخلق صدقية مبدأ عملي مناسب، يمكن أن يعبر عنها بجملة شرطية، فيما جواها يوجد في جملة طلبية»³⁶. وهذا أن المعنى البراغماتي حسب هابرماس يقتضي مبدأ عملي مناسب يعبر عنها بجملة شرطية مناسبة، والجملة الشرطية صيغتها إذا كان... فإن... بحيث كون واقعياً ولها معنى.

يقول هابرماس " من الفرضية الأساسية هذه يمكن اشتقاق معيار معنى براغماتي يسمح بإلغاء أقوال لا معنى لها، ويضبط معنى مفاهيم مشوشة. غير أن قصد ما يسميه بيرس ما يسميه بالبراغماتي، وفيما بعد، من أجل أن يميزه عن التفسير الخاطئ المشتق من علم النفس، يسميها بالبراغماتية الجديدة فيهدف

Pragmatizismus إلى ما هو أبعد من ذلك³⁷. إذا كان البرغماتية تهدف هنا إلى إلغاء الأقوال التي لا معنى لها، غير أنّ بيرس يهدف إلى أكثر من ذلك وهو التحقق الفعلي.

وعن المعرفة والمصلحة يرى هابرماس "أن عقلانية الفعل المحكوم بالنجاح على تحقق مصلحة ما لا يمكن أن تكون مجرد مصلحة تجريبية ولا مصلحة محضة. لو كانت سيرورة المعرفة مباشرة سيرورة حياة، ذلوجب على تحقق المصلحة التي توجه المعرفة أن يجلب معه اشباع حاجة ما مثل حركة الغريزة- غير أن المصلحة المحققة لا تقود إلى السعادة، وإنما إلى النجاح، هذا النجاح يقاس على حلول المشكلات التي لها أهمية حيوية وإدراكية في الوقت ذاته. وهكذا فإن المصلحة لا تقف مع توجهات السلوك الحيوانية في نفس المستوى الذي يمكن أن نسميه غرائز، كما أنها ليست منطلقة تماما من جهة ثانية من العلاقة الموضوعية لسيرورة الحياة"³⁸. وعليه فإن المصلحة هي التي تهدف إلى تحقق النجاح على أرض الواقع وهذا ما تدعو إليه الفلسفة البرغماتية إذ نجد أن الفكرة الصحيحة هي الفكرة المتحققة فعليا على أرض الواقع وإنما هي " بطبيعة الحال يمكن لمصلحة من هذا النوع أن تحسب فقط لذات من شأنها أن توحد السمات التجريبية لنوع منطلق من تاريخ الطبيعة مع السمة المدركة عقليا لجماعة مكونة للعالم (...). أي أن بيرس لا يمكن أن يفكر بهذه الذات. فهي تنهار من بين يديه لأنه يطبق بشكل متساو معيار المعنى البرغماتي على مفهوم الروح كما على مفهوم المادة"³⁹. من هنا يتضح الفرق بين المصلحة عند هابرماس والمصلحة عند بيرس، بحيث نجد هابرماس يوجه نقدا لاذعا إلى المصلحة عند بيرس إذ يساوي هذا الأخير بين ما هو روعي وما هو مادي من أجل تحقيق المصلحة، فالمصلحة بالنسبة لهابرماس يجب أن تلغي كل المبادئ التي تدخل في تكون الذات والتي لا يمكن تطبيقها على ما هو روعي وإنما ربطها بما هو واقعي.

خاتمة:

لقد ارتبط اسم يورغن هابرماس بالفضاء العمومي الذي حاول من خلاله أن يحقق عيش أفضل لأفراد مجتمه وذلك بإخراجهم من دائرة الفردية والتمركز حول الذات إلى مجال أوسع من ذلك وهو مجال الفضاء العمومي

الذي يتم من خلاله التواصل. المبني على أسس معينة ومعايير محددة، فالتواصل يركز على عنصر اللغة كأساس له، لكن في ظل بعدها البرغماتي الذي يحقق المنفعة من خلال التفاهم بين أفراد مجتمعه، التفاهم بين الذوات المشاركة في هذا الفعل التواصل الذي يعتمد اللغة كأساس تواصل لها وبالتالي يحدث الفهم الصحيح بينهم وبالتالي تحقيق غايتهم العملية.

-
- ¹ كنزاي محمد فوزي، براديعم مدرسة فرانكفورت على المحك: منظور اتصالي، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة سكيكدة، العدد9، سنة 2014، ص114.
- ² أودينة سليم، فلسفة التداوليات الصورية وأخلاقيات النقاش عند يورغن هابرماس، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة قسنطينة، س2009.
- ³ المرجع نفسه، ص33.
- ⁴ جيمس جوردن تر: أحمد محمد الروبي، يورغن هابرماس - مقدمة قصيرة جداً، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط1، سنة2014، ص45.
- ⁵ جيمس جوردن، يورغن هابرماس - مقدمة قصيرة جداً، تر: أحمد محمد الروبي، المرجع السابق، ص46.
- ⁶ أودينة سليم، فلسفة التداوليات الصورية وأخلاقيات النقاش عند يورغن هابرماس، المرجع سابق ص36.
- ⁷ رشيد العلوي، الفضاء العمومي من هابرماس إلى نانسي فريزر، مجلة دلتا نون، العدد الثاني، نوفمبر 2014، ص13.
- ⁸ جيمس جوردن، يورغن هابرماس - مقدمة قصيرة جداً، تر: أحمد محمد الروبي، المرجع السابق، ص48.
- ⁹ المرجع نفسه، ص48.
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص48.
- ¹¹ جيمس جوردن، يورغن هابرماس، تر: أحمد محمد الروبي، المرجع السابق، ص49.
- ¹² المرجع نفسه، ص: 49، 50.
- ¹³ محمد بجاوي، الفلسفة والتفكير الفلسفي، خصائص الفلسفة وعلاقتها بالحقول المعرفية الأخرى. نصوص فلسفية مختارة ومترجمة، أفريقيا الشرق، ط3، س2012، ص103.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص: 103، 104.
- ¹⁵ فوزية شراد، فلسفة اللغة عند يورغن هابرماس، المرجع السابق، ص250.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص252.

-
- عبد الغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، كلية الآداب، الكويت، د.ط، سنة 1992، ص¹⁷ 93.
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص 94.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 95.
- ²⁰ جان مارك مارك فيري، فلسفة التواصل، تر: عمر مهيبيل، المرجع السابق، ص 18.
- ²¹ المرجع نفسه، ص 18.
- ²² فوزية شراد، فلسفة اللغة عند يورغن هابرماس، المرجع السابق، ص 95.
- ²³ المرجع نفسه، ص 96.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص 102.
- ²⁵ كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، سنة 2010، ص 118.
- ²⁶ المرجع نفسه، ص 118.
- ²⁷ جان مارك فيري، فلسفة التواصل، المرجع السابق، ص 19.
- ²⁸ كمال بومنيير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، المرجع السابق، ص 107.
- ²⁹ المرجع نفسه، ص 120.
- ³⁰ كمال بومنيير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، المرجع السابق، ص 123.
- ³¹ محمد عابد الجابري، التواصل: نظريات وتطبيقات الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط 1، ص 37، 2010.
- ³² فوزية شراد، فلسفة اللغة عند يورغن هابرماس، المرجع السابق، ص 184.
- ³³ المرجع نفسه، ص 184.
- ³⁴ فوزية شراد، فلسفة اللغة عند يورغن هابرماس، المرجع السابق، ص 184.
- ³⁵ المرجع نفسه، ص 184.
- ³⁶ يورغن هابرماس، المعرفة والمصلحة، تر: حسن صقر، منشورات الجمل، ألمانيا، ط 1، ص 146، 2001.
- ³⁷ المرجع نفسه، ص 146.
- ³⁸ يورغن هابرماس، المعرفة والمصلحة، تر: حسن صقر، المرجع السابق، ص 163.
- ³⁹ المرجع نفسه، ص 164.